سورة غافرٍ

مكية. [قال الحسن: إلاّ قوله ﴿وسبح بحمد ربك﴾ لأن الصلوات نزلت بالمدينة، وقد قيل في الحواميم كلها: إنها مكيات: عن ابن عباس وابن الحنفية] وهي خمس وثمانون آية، وقيل: ثنتان وثمانون] [نزلت بعد الزمر]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾

قرئ بإمالة ألف «حا» وتفخيمها، وبتسكين الميم وفتحها. ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين، وإيثار أخف الحركات، نحو أين وكيف، أو النصب بإضمار اقرأ، ومنع الصرف، للتأنيث والتعريف أو للتعريف، وأنها على زنة أعجمي نحو قابيل وهابيل. ﴿ٱلتَّوْبِ﴾ والثوب والأوب: أخوات في معنى الرجوع، و﴿الطول﴾: الفضل والزياد. يقال: لفلان على فلان طول، والإفضال. يقال: طال عليه وتطوّل، إذا تفضل. فإن قلت: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً، والموصوف معرفة يقتضي أن تكون مثله معارف؟ قلت: أمّا ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ فمعرفتان؛ لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين، وأنه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن أو غداً؛ حتى يكونا في تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقية، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه، فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش. وأما شديد العقاب فأمره مشكل؛ لأنه في تقدير: شديد عقابه لا ينفك من هذا التقدير، وقد جعله الزجاج بدلاً. وفي كونه بدلاً وحده بين الصفات نبوّ ظاهر، والوجه أن يقال: لما صودف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة، فقد آذنت بأنّ كلها أبدال غير أوصاف، ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن، فهي محكوم عليها بأنها من بحر الرجز، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن كانت من الكامل،[1] ولقائل أن

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: لما اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصوف معرفة يقتضي أن تكون مثله معارف؟ وأجاب بأن غافر الذنب وقابل التوب معرفان؛ لأنهما صفتان لازمتان، وليستا لحدوث الفعل حتى تكونا حالاً أو استقبالاً، بل إضافتهما حقيقة. وأما شديد العقاب فلا شك في =

يقول: هي صفات، وإنما حذف الألف واللام من ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ ليزاوج ما قبله وما بعده لفظاً، فقد غيروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل الازدواج، حتى قالوا: ما يعرف سحادليه من عنادليه، فثنوا ما هو وتر لأجل ما هو شفع؛ على أنّ الخليل قال ـ في قولهم: ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك، وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل ـ: أنه على نية الألف واللام، كما كان الجماء الغفير على نية طرح الألف واللام، ومما سهل ذلك الأمن من اللبس و.. بهالة الموصوف. ويجوز أن يقال ٢/١٤٩ب: قد تعمد تنكيره، وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار. ويجوز أن يقال: هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال[1].

فإن قلت: ما بال الواو في قوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾؟ قلت: فيها نكتة جليلة، وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات. وأن يجعلها محاة للذنوب، كأن لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول. وروي أنّ عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فقال عمر لكاتبه: اكتب، من عمر إلى فلان: سلام عليك، وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو: بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿حمٓ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾. وختم الكتاب، وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة. فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذرني عقابه، فلم يبرح يردّدها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته، فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم قد زلّ زلة فسدّدوه ووقفوه، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه (١٣٥١).

١٣٥١ ـ أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/٩٧ ـ ٩٨)، في ترجمة يزيد بن الأصم. =

= أن إضافته غير حقيقية، يريد: لأنه من الصفات المشبهة، ولا تكون إضافتها محضة أبداً. عاد كلامه قال: وجعله الزجاج بدلاً وحده، وانفراد البدل من بين الصفات فيه نبو ظاهر. والوجه أن يقال: إن جميعها أبدال غير أوصاف؛ لوقوع هذه النكرة التي لا يصح أن تكون صفة، كما لو جاءت قصيدة تفاعيلها كلها على مستفعلن، قضى عليها بأنها من بحر الرجز، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن: كانت من الكامل، قال أحمد: وهذا لأن دخول مستفعلن في الكامل يمكن؛ لأن متفاعلن يصير بالإضمار إلى مستفعلن، وليس وقوع متفاعلن في الرجز ممكناً؛ إذ لا يصير إليه مستفعلن البتة، فما يفضي إلى الجمع بينهما فإنه يتعين، وهذا كما يقضي الفقهاء بالخاص على العام؛ لأنه الطريق في الجمع بين الدليلين.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وفيه نزعة اعتزالية، ومذهب أهل السنة جواز الغفران للعاصي وإن لم يتب، إلا الشرك، قلت: وما أبعده عن نزعة الاعتزال، ثم أقول: التلازم لازم من جهة أنه تعالى متى قبل التوبة فقد غفر الذنب وهو كافٍ في التلازم. انتهى. الدر المصون.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾

سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر، والمراد: الجدال بالباطل، من الطعن فيها، والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله، وقد دلَّ على ذلك في قوله: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحلّ مشكلها ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله، وقوله ﷺ: «إنّ جدالاً في القرآن كفر» (١٣٥٢) وإيراده منكراً، وإن لم يقل: إنّ الجدال تمييز منه بين جدال وجدال. فإن قلت: من أين تسبب لقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ ما قبله؟ قلت: من حيث إنهم لما كانوا مشهوداً عليهم من قبل الله بالكفر، والكافر لا أحد أشقى منه عند الله، وجب على من تحقق ذلك أن لا ترجح أحوالهم في عينه، ولا يغره إقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن، ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون، فإنّ مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال، ووراءه شقاوة الأبد. ثم ضرب لتكذيبهم وعداوتهم للرسل وجدالهم

= وذكره ابن هشام في تفسيره (٣/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨)، رقم (١٦٠٧) وعزاه للزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦) لعبد بن حميد في تفسيره، وكذا للثعلبي وابن أبي حاتم في تفاسيرهم.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه أبو نعيم في ترجمة يزيد الأصم من رواية كثير بن هشام عن جعفر ابن برقان عن يزيد الأصم، «أن رجلاً كان ذا بأس ـ فذكره بتمامه، ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن كثير بن هشام باختصار. وكذا ابن أبي حاتم والثعلبي. انتهى.

١٣٥٢ ـ جاء من حديث أبي هريرة، ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. فأما حديث أبي هريرة.
فأخرجه أبو داود (٤/ ١٩٩)، كتاب السنة، باب: النهي عن الجدال في القرآن، رقم (٤٦٠٣).
وأحمد (٢/ ٢٥٨، ٢٨٦، ٤٢٤، ٤٧٥، ٥٠٣، ٥٢٨). وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢١٢ ـ ٢١٣).، والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ١٣٦)، (٤/ ٨١)، والحاكم (٢/ ٢٢٣)، كتاب: التفسير، باب: الجدل في القرآن كفر، وابن حبان (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥)، كتاب: الصلاة، باب: الوعيد على ترك الصلاة، رقم (١٤٦٤). والطبراني في الصغير(١/ ١٧٨)، باب: من اسمه شباب، وأبو يعلى في مسنده (١٠/ ٣٠٣)، رقم (٥٧) ـ (٥٨٩٧).
والبيهقي في الشعب (٢/ ٤١٦)، الباب التاسع عشر، باب: في تعظيم القرآن، فصل: في ترك المماراة في القرآن، رقم (٢٢٥٦).
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢١٧) لإسحاق بن راهويه في مسنده، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي. وأما حديث عبد الله بن عمرو، فأخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٤١٦ ـ ٤١٧)، الباب: التاسع عشر، باب: في تعظيم القرآن، فصل: في ترك المماراة في القرآن، رقم (٢٢٥٧)، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطيالسي، ومن طريقه البيهقي في الشعب في التاسع عشر من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ: «لا تجادلوا في القرآن، فإن جدالاً فيه كفر»، وفي الباب عن أبي هريرة بلفظ: «مراء في القرآن كفر في الصحيح والسنن». انتهى.

بالباطل وما ادّخر لهم من سوء العاقبة مثلاً: ما كان من نحو ذلك من الأمم، وما أخذهم به من عقابه وأحله بساحتهم من انتقامه. وقرئ: «فلا يغرّك».

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾

﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هذه الأمم التي هي قوم نوح والأحزاب ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ وقرئ: «برسولها» ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا منه ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل. ويقال للأسير: أخيذ؛ ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ يعني: أنهم قصدوا أخذه فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه أن أخذتهم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنكم تمرون على بلادهم ومساكنهم فتعاينون أثر ذلك، وهذا تقرير فيه معنى التعجيب.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾

﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ في محل الرفع بدل من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار. ومعناه: كما وجب هلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة، أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل. والذين كفروا: قريش، ومعناه، كما وجب إهلاك أولئك الأمم، كذلك وجب إهلاك هؤلاء؛ لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار. وقرئ: «كلمات».

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

روي: أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورءوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم. وعن النبي ﷺ: «لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة، فإن خلقاً من الملائكة يقال له: إسرافيل، زاوية من زوايا العرش على كاهله، وقدماه في الأرض السفلى، وقد مرق رأسه من سبع سمٰوات، وإنه

ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع[1] (١٣٥٣)». وفي الحديث: «إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة» (١٣٥٤). وقيل: خلق الله العرش من جوهرة خضراء، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام. وقيل: حول العرش سبعون ألف صنف من الملائكة، يطوفون به مهللين مكبرين، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم ٢/ ١٥٠أ رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر. وقرأ ابن عباس: «العرش» بضم العين. فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ولا يخفى على أحد أنّ حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون؟[2] قلت: فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه ،كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ

١٣٥٣ ـ أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٢/ ٦٩٧ ـ ٦٩٨) رقم (٢٨٨) ـ (٢٧)، (٣/ ٩٤٩ ـ ٩٥٠)، ذكر حملة العرش وعظم خلقهم، رقم (٤٧٧) ـ (٢)، من طريق ابن عباس.
قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢١٨): غريب، وفي تفسير الثعلبي: وروي عن شهر بن حوشب عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «لا تتفكروا في عظم ربكم...» إلى آخره، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي، وروى شهر بن حوشب: أن ابن عباس رفعه بهذا تعليقاً، وهو في كتاب العظمة لأبي الشيخ. انتهى.
١٣٥٤ ـ قال ابن حجر: لم أجده، وسكت عنه الزيلعي.

---

(١) قوله: «كأنه الوصع» طائر أصغر من العصفور. (ع).
(٢) قال محمود: «إن قلت. ما فائدة قوله: (ويؤمنون به) ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة مؤمنون بالله تعالى؟... إلخ» قال أحمد: كلام حسن إلاّ استدلاله بقوله: (ويؤمنون به) على أنهم ليسوا مشاهدين. فهذا لا يدل؛ لأن الإيمان هو التصديق غير مشروط فيه غيبة المصدق به. بدليل صحة إطلاق الإيمان بالآيات مع أنها مشاهدة، كانشقاق القمر وقلب العصا حية. وإنما نقب الزمخشري بهذا التكلف عما في قلبه من مرض، لكنه طاح بعيداً عن الغرض، فقرر أن حملة العرش غير مشاهدين، بدليل قوله تعالى: (ويؤمنون) لأن معنى الإيمان عنده التصديق بالغائب، ثم يأخذ من كونهم غير مشاهدين: أن الباري عز وجل لو صحت رؤيته لرأوه، فحيث لم يروه لزم أن تكون رؤيته تعالى مما لا يصححه العقل، وقد أبطلنا ما ادعاه من أن الإيمان مستلزم عدم الرؤية، ولو سلمناه فلا نسلم أنه يلزم من كون حملة العرش غير مشاهدين له تعالى أن تكون رؤيته غير صحيحة، وقوله: ولو كانت صحيحة لرأوه: شرطية عقيمة الإنتاج؛ لأن الرؤية عبارة عن إدراك، يخلق الله تعالى هذا الإدراك لحملة العرش، إلا أن يذهب بالزمخشري الوهم إلى أن مصححي الرؤية يعتقدون الجسمية والاستقرار على العرش، فيلزمهم رؤية حملة العرش له تعالى الله عن ذلك، وحاشى أهل السنة ومصححي الرؤية من ذلك.

مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٧] فبان بذلك فضل الإيمان. وفائدة أخرى: وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة[1] لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معاينين، ولما وصفوا بالإيمان؛ لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب، فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم عُلِمَ أنّ إيمانهم وإيمان من في الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام ـ سواء: في أنّ إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير، وأنه لا طريق إلى معرفته إلاّ هذا، وأنه منزه عن صفات الأجرام. وقد روعي التناسب في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كأنه قيل: ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم. وفيه تنبيه على أنّ الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة، وأبعثه على إمحاض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن. فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان، ولا بين سماوي وأرضي قط، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي، حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض. قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]. أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾ وهذا المضمر يحتمل أن يكون بياناً ليستغفرون مرفوع المحل مثله، وأن يكون حالاً. فإن قلت: تعالى الله عن المكان، فكيف صحّ أن يقال: وسع كل شيء؟ قلت: الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى. والأصل: وسع كل شيء رحمتك وعلمك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم، وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء. فإن قلت: قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون ما بعد الفاء مشتملاً على حديثهما جميعاً، وما ذكر إلاّ الغفران وحده؟ قلت: معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك[2]. وسبيل الله: سبيل

---

(١) قوله: «كما تقول المجسمة» يريد أهل السنة؛ لأنهم لما جوزوا رؤيته تعالى معاينة لزمهم القول بأنه تعالى جسم، ولكن الرؤية لا تستلزم الجسمية، خلافاً للمعتزلة، كما بين في علم التوحيد. (ع).

(٢) قال محمود: «فإن قلت: قد ذكر أولاً الرحمة والعلم، ثم ذكر ما توجبه الرحمة وهو الغفران، فأين موجب العلم؟ وأجاب بأن معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك.. إلخ» قال أحمد: كلامه ههنا محشو بأنواع الاعتزال: منها اعتقاد وجوب مراعاة المصلحة ودواعي الحكم على الله تعالى. ومنها اعتقاد أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر وجوباً وإن لم يكن توبة. ومنها اعتقاد امتناع غفران الله تعالى للكبائر التي لم يتب عنها. ومنها اعتقاد وجوب قبول التوبة على الله تعالى. ومنها جحد الشفاعة، واعتقاد أهل السنة أن الله تعالى لا يجب عليه مراعاة المصلحة، وأنه يجوز أن يعذب على الصغائر وإن اجتنب الكبائر، وأنه يجوز أن يغفر الكبائر ما عدا الشرك وإن لم يتب منها، وأن قبول التوبة بفضله ورحمته لا بالوجوب عليه، وأنها تنال أهل الكبائر المصرين من الموحدين، فهذه جواهر خمسة نسأل الله تعالى أن يقلد عقائل عقائدنا بها إلى الخاتمة، وأن لا يحرمنا ألطافه ومراحمه، آمين. وجميع ما يحتاج إلى تزييفه مما ذكره على قواعد الاعتزال في هذا =

الحق التي نهجها[1] لعباده ودعا إليها ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الملك الذي لا يغلب، وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئاً إلاّ بداعي الحكمة، وموجب حكمتك أن تفي بوعدك، ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: العقوبات، أو جزاء السيئات. فحذف المضاف على أن السيئات، هي الصغائر أو الكبائر المتوب عنها. والوقاية منها: التكفير أو قبول التوبة. فإن قلت: ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة والله لا يخلف الميعاد؟ قلت: هذا بمنزلة الشفاعة، وفائدته زيادة الكرامة والثواب. وقرئ: «جنة عدن» و«صلُح» بضم اللام، والفتح أفصح. يقال: صلح فهو صالح، وصلح فهو صليح، و«ذريتهم».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

أي: ينادون يوم القيامة، فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ والتقدير: لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم، فاستغنى بذكرها مرة. و ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ منصوب بالمقت الأوّل[2]. والمعنى: أنه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء

= الموضع قد تقدم، غير أنه جدد ههنا قوله: إن فائدة الاستغفار كفائدة الشفاعة، وذلك مزيد الكرامة لا غير، يريد: أن المغفرة للتائب واجبة على الله فلا تسأل، وهذا الذي قاله مما يجعل لنفسه فيه الفضيحة، زادت على بطلانه هذه الآية بالألسن الفصيحة، كيف يجعل المسئول مزيدة الكرامة لا غير. ونص الآية: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، فهي ناطقة بأنهم يسألون من الله تعالى المغفرة للتائب ووقاية عذاب الجحيم، وهو الذي أنكر الزمخشري كونه مسئولاً.

(١) قوله: «التي نهجها» أي: أبانها وأوضحها. أفاده الصحاح. (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: وردَّ عليه الشيخُ بأنه يلزم منه الفصل بين المصدر ومعموله بأجْنَبِيٍّ وهو الخبر. وقال: هذا من ظواهر علم النحو التي لا تكاد تخفى على المُبْتَدِىء فضلاً عن مَنْ يَدَّعِي من العجم أنه شيخُ العرب والعجم. قُلْتُ: ومثلُ هذا لا يَخْفَى على أبي القاسم وإنما أراد أنَّه دالٌّ على ناصِبِه. وعلى تقدير ذلك فهو مذهبٌ كوفي قال به، أوْ لأنَّ الظرف يُتَّسَعُ فيه ما لا يتسع في غيره، وأيُّ غُمُوض في هذا حتى يَنْحَى عليه هذا الإنْحاء؟ ولله القائلُ [من الكامل]:

حَسَدُوا الفَتَى إذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَه ... فَالْقَوْمُ أَعْدَاءٌ لَهُ وخُصُومُ

كضَرَائِرِ الحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا ... كَذِباً وزوراً: إنَّه لَدَمِيمُ

وهذا الردُّ قد سبقه إليه أبو البقاء فقال: ولا يجوز أن يعمل فيه «مَقْتُ الله» لأنه مصدرٌ أُخْبِرَ عنه وهو قوله: «أكْبَرُ» فمن ثَمَّ أخَذَهُ الشيخُ. ولا يجوز أن ينتصبَ بالمقت الثاني؛ لأنهم لم يَمْقُتُوا أنْفُسَهُمْ وَقْتَ دُعَائِهِم إلى الإيمانِ وإنما مَقَتُوهَا يومَ القيامة. والظاهرُ أنَّ مَقْتَ الله واقعٌ في الدنيا. وجوَّز =

والكفر، حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان، فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشدّ مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار إذا أوقعتكم فيها باتباعكم هواهنّ. وعن الحسن: لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم، فنودوا لمقت الله. وقيل: معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض، كقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. و﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾: تعليل، والمقت: أشدّ البغض، فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشدّه. ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ إماتتين وإحياءتين، أو موتتين وحياتين، وأراد بالإماتتين: خلقهم أمواتاً أوّلاً، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحيائتين الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. وناهيك تفسيراً لذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. فإن قلت: كيف صحّ أن يسمي خلقهم أمواتاً: إماتة؟ قلت: كما صحّ ٢/ ١٥٠ب أن تقول: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل! وقولك للحفار: ضيق فم الركية ووسع أسفلها، وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر، ولا من ضيق إلى سعة، ولا من سعة إلى ضيق، وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات، والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معاً على المصنوع الواحد، من غير ترجح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة. فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما[1] على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كنقله منه، ومن جعل الإماتتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد

= الحَسَنُ أنْ يكون في الآخرة، وضعّفه الشيخُ بأنه يَبْقَى «إِذْ تَدْعُونَ» مُفَلتاً من الكلام لكونه ليس له عامل مقدم ولا ما يُفَسِّرُ عاملاً، فإذا كان المَقْتُ في الدنيا أمْكَنَ أَنْ يُضْمَرَ له عامل تقديره: مَقَتَكُمْ. قُلْتُ: وهذا التَّجَرِّي على مثل الحسن يُهَوِّنُ عليك تَجَرِّيه على الزمخشري ونحوه. انتهى الدر المصون.

(١) قال محمود: «إحدى الإماتتين خلقهم أمواتاً أولاً، والأخرى إماتتهم عند انقضاء آجالهم، ثم قال: فإن قلت: كيف سمى خلقه لهم أمواتاً إماتة؟ وأجاب بأنه كما يقال: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل، وكما يقال للحفار: ضيق فم الركية ووسع أسفلها، وليس ثم نقل من صغر إلى كبر ولا عكسه، ولا من ضيق إلى سعة ولا عكسه. وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات. والسبب في صحته أن الكبر والصغر جائزان معاً على المصنوع الواحد، وكذلك الضيق والسعة، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن من الآخر، جعل صرفاً عن الآخر وهو متمكن منه.» قال أحمد: ما أسد كلامه ههنا؛ حيث صادق التمسك بأذيال نظر مالك رحمه الله في مسألة: ما إذا باعه إحدى وزنتين معينتين على اللزوم لإحداهما والخيرة في عينها، فإنه منع من ذلك؛ لأن المشتري لما كان متمكناً من تعيين كل واحدة منهما على سواء، فإذا عين واحدة منهما بالاختيار نزل عدوله عن الأخرى، وقد كان متمكناً منها منزلة اختيارها أولاً، ثم الانتقال عنها إلى هذه، فإذا آل إلى بيع إحداهما بالأخرى غير معلومتي التماثل، وهو الذي لخصه أصحابنا في قولهم: إن من خير بين شيئين فاختار أحدهما: عُدَّ متنقلاً. وقد سبقت هذه القاعدة لغير هذا الغرض فيما تقدم.

حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياءات، وهو خلاف ما في القرآن، إلاّ أن يتمحل فيجعل إحداها غير معتدّ بها، أو يزعم أن الله تعالى يحييهم في القبور، وتستمرّ بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها، ويعدّهم في المستثنيين من الصعقة في قوله تعالى ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٧٨]. فإن قلت: كيف تسبب هذا لقوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾؟ قلت: قد أنكروا البعث فكفروا، وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى؛ لأن من لم يخش العاقبة تخرق[1] في المعاصي، فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرّرا عليهم، علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم. ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ أي: إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ قط، أم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه. وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط، وإنما يقولون ذلك تعللاً وتحيراً؛ ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك، وهو قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي؛ ذلكم الذي أنتم فيه، وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد الله وإيمانكم بالإشراك[2] به، ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد:، وقوله: ﴿ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة، وعلى أن عقاب مثله لا يكون إلاّ كذلك، وهو الذي يطابق كبرياءه ويناسب جبروته. وقيل: كأن الحرورية[3] أخذوا قولهم: لا حكم إلاّ لله، من هذا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۗ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

---

(١) قوله: «تخرق في المعاصي» في الصحاح: يقال: هو يتخرق في السخاء، إذا توسع فيه. (ع).

(٢) قال محمود: «أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء (من سبيل) قط، أم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه، وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط، وإنما يقولون ذلك تعللاً وتحيراً؛ ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك، وهو قوله (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم) معناه: أن اعتياض السبيل إلى خروجكم من النار سببه كفركم بتوحيد الله تعالى، وإيمانكم بالإشراك، قال أحمد: وعلى هذا النمط بنى الشعراء مثل قولهم [من مجزوء الرمل]:

هل إلى نجد وصول ... وعلى الخيف نزول

وإنما قصدهم أن هذا أمر غالب فيه اليأس على الطمع.

(٣) قوله: «الحرورية» في الصحاح: أنها طائفة من الخوارج تنسب إلى «حرور» اسم قرية، وكأنه يريد أهل السنة؛ فإنهم الذين اشتهر عنهم هذا القول، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن الفعل قد يدرك الحكم قبل ورود الشرع، كما بيّن في الأصول. (ع).

﴿يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها. والرزق: المطر؛ لأنه سببه. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ مَن يُنِيبُ﴾ وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلاّ من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله، فإن المعاند لا سبيل إلى تذكره واتعاظه، ثم قال للمنيبين: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك، وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم. ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ ثلاثة أخبار؛ لقوله: «هو» مترتبة على قوله: ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾ أو أخبار مبتدإٍ محذوف، وهي مختلفة تعريفاً وتنكيراً[1]. وقرئ: «رفيع الدرجات» بالنصب على المدح. ورفيع الدرجات، كقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٣] وهي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش، وهي دليل على عزّته وملكوته. وعن ابن جبير: سماء فوق سماء. والعرش فوقهن. ويجوز أن يكون عبارة عن رفعة شأنه وعلوّ سلطانه، كما أنّ ذا العرش عبارة عن ملكه. وقيل: هي درجات ثوابه التي ينزلها أولياءه في الجنة ﴿ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ الذي هو سبب الحياة من أمره، يريد: الوحي الذي هو أمر بالخير وبعث عليه، فاستعار له الروح، كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ﴿لِيُنذِرَ﴾ الله أو الملقى عليه: وهو الرسول أو الروح. وقرئ: «لتنذر» أي: لتنذر الروح لأنها تؤنث، أو على خطاب الرسول. وقرئ: «لينذر يوم التلاق» على البناء للمفعول. ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يوم القيامة؛ لأن الخلائق تلتقي فيه. وقيل: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقيل: المعبود والعابد. ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء؛ لأنّ الأرض بارزة قاع صفصف، ولا عليهم ثياب، إنما هم عراة مكشوفون، كما جاء في الحديث: «يحشرون عراة حفاة غرلاً» (١٣٥٥) ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾. أي: من أعمالهم وأحوالهم. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يخفى عليه منهم شيء. فإن قلت: قوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ بيان وتقرير لبروزهم، والله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أو لم يبرزوا، فما معناه؟ قلت: معناه أنهم كانوا يتوهمون ـ في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب ـ أنّ الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا

١٣٥٥ ـ أخرجه البخاري (١٣/ ١٨٧ ـ ١٨٨)، كتاب الرقاق، باب: الحشر حديث (٦٥٢٧). ومسلم (٩/ ٢١٠)، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا، وبيان الحشر. حديث (٥٦) ـ (٢٨٥٩)، كلاهما من طريق عائشة.

وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

---

(١) قال السمين الحلبي: أما الأول: ففيه طُول الفصل وتعدُّد الأخبارِ وليست في معنى خَبَرٍ واحدٍ. انتهى. الدر المصون.

يتوهمونه. قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ٢/ ١٥١أ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨] وذلك لعلمهم أنّ الناس يبصرونهم؛ وظنهم أنّ الله لا يبصرهم، وهو معنى قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به. ومعناه: أنه ينادي مناد فيقول: لمن الملك اليوم؟ فيجيبه أهل المحشر: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾. وقيل: يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يُعْصَ الله فيها قط «فأوّل ما يتكلم به أن ينادي منادٍ: (لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس...) الآية. فهذا يقتضي أن يكون المنادي هو المجيب.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

لما قرّر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم عدّد نتائج ذلك، وهي أنّ كل نفس تجزى ما كسبت، وأن الظلم مأمون؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد، وأن الحساب لا يبطىء؛ لأن الله لا يشغله حساب على حساب، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد وهو أسرع الحاسبين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أخذ في حسابهم لم يَقِلْ[1] أهل الجنة إلاّ فيها ولا أهل النار إلاّ فيها.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾

الآزفة: القيامة، سميت بذلك لأزوفها، أي: لقربها. ويجوز أن يريد بـ«يوم الآزفة»: وقت الخُطّة الآزفة، وهي مشارفتهم دخول النار، فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارّها فتلصق بحناجرهم، فلا هي تخرج فيموتوا، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروّحوا، ولكنها معترضة كالشجا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧]. فإن قلت: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ بما انتصب؟ قلت: هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى؛ لأن المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها. ويجوز أن يكون حالاً عن القلوب، وأن القلوب كاظمة على غمّ وكرب فيها مع بلوغها الحناجر، وإنما جمع الكاظم جمع السلامة؛ لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء، كما قال تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] وتعضده قراءة من قرأ: «كاظمون» ويجوز أن يكون حالاً عن قوله: وأنذرهم، أي: وأنذرهم

---

(١) قوله: «لم يقل أهل الجنة إلاّ فيها» من قال يقيل قيلولة. (ع).

مقدّرين أو مشارفين الكظم، كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] الحميم: المحب المشفق. والمطاع: مجاز في المشفع؛ لأنّ حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلاّ لمن فوقك. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾؟ قلت: يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معاً، وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة[1]، كما تقول: ما عندي كتاب يباع، فهو محتمل نفي البيع وحده، وأن عندك كتاباً إلا أنك لا تبيعه، ونفيهما جميعاً، وأن لا كتاب عندك، ولا كونه مبيعاً. ونحوه [من السريع]:

وَلاَ تَـرَى الـضَّـبَّ بِـهَـا يَـنْـجَـحِـرُ ..... [2]

يريد: نفي الضب وانجحاره. فإن قلت: فعلىٰ أي الاحتمالين يجب حمله؟ قلت: على نفي الأمرين جميعاً، من قبل أن الشفعاء هم أولياء الله، وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلاّ من أحبه الله ورضيه، وأنّ الله لا يحبّ الظالمين، فلا يحبونهم، وإذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] ولأن الشفاعة لا تكون إلاّ في زيادة التفضل[3]، وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب، بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٤] وعن الحسن رضي الله عنه: والله ما يكون لهم شفيع البتة، فإن قلت: الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه، فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها؟ قلت: في ذكرها فائدة جليلة، وهي أنها ضمت إليه؛ ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة؛ لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف، بيانه: أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت: ما لي فرس أركبه، ولا معي سلاح أحارب به، فقد جعلت عدم الفرس وفقد السلاح علة مانعة من الركوب والمحاربة، كأنك تقول: كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة ولا فرس لي ولا سلاح معي؟ فكذلك قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ معناه: كيف يتأتى التشفيع

---

(١) قال محمود: «يحتمل أن يكون المنفي الشفيع الذي هو الموصوف وصفته وهي الطاعة، ويحتمل أن يكون المنفي الصفة وهي الطاعة والشفيع ثابت» قال أحمد: إنما جاء الاحتمال من حيث دخول النفي على مجموع الموصوف والصفة، ونفي المجموع كما يكون بنفي كل واحد من جزئيه، وكذلك يكون بنفي أحدهما، على أن المراد هنا ـ كما قال ـ: نفي الأمرين جميعاً. قال: وفائدة ذكر الموصوف أنه كالدليل على نفي الصفة؛ لأنه إذا انتفى الموصوف انتفت الصفة قطعاً، قلت: فكأنه نفى الصفة مرتين من وجهين مختلفين.

(٢) تقدم.

(٣) قوله: «لا تكون إلاّ في زيادة التفضل» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة: فتكون في الخروج من النار أيضاً، كما تقرر في التوحيد. وحديث الشفاعة مشهور، نعم الكفار لا خروج لهم من النار. (ع).

ولا شفيع، فكان ذكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأتيه بعدم الشفيع وضعاً لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف[1] غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾

الخائنة: صفة للنظرة. أو مصدر بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة، والمراد: استراق النظر إلى ما لا يحل، كما يفعل أهل الريب ٢/١٥١ب، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين؛ لأن قوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ لا يساعد عليه[2]. فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾؟ قلت: هو خبر من أخبار هو في قوله: ﴿هو الذي يريكم﴾ مثل ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ ولكن ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ قد علل بقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فبعد لذلك عن أخواته.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلاّ بالحق والعدل؛ لاستغنائه عن الظلم. وآلهتكم لا يقضون بشيء. وهذا تهكم بهم؛ لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضي، أو لا يقضي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقرير لقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون الله، وأنها لا تسمع ولا تبصر، وقرئ: «يدعون» بالتاء والياء.

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۖ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

(هم) في ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ فصل. فإن قلت: من حق الفصل أن لا يقع إلاّ بين معرفتين فما باله واقعاً بين معرفة وغير معرفة؟ وهو أشدّ منهم. قلت: قد ضارع المعرفة

---

(١) قوله: «موضع الأمر المعروف» أي الذي يعرفه السامع ويسلمه، كما هو شأن الشاهد على الدعوى، وإذا كان انتفاء الشفيع معروفاً فلا ينتفي أن يتوهم وجوده، وبهذا يتبين قوله فيما سبق، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجوده الموصوف. (ع).

(٢) قال محمود: «الخائنة إما صفة للنظرة وإما مصدر كالعافية» قال: «ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين» لأنه لا يساعد عليه قوله تعالى: (وما تخفي الصدور) قال أحمد: إنما لم يساعد عليه؛ لأن خائنة الأعين على هذا التقدير معناه: الأعين الخائنة، وإنما يقابل الأعين الصدور، لا ما تخفيه الصدور، بخلاف التأويل الأول، فإن المراد به نظرات الأعين، فيطابق خفيات الصدور.

في أنه لا تدخله الألف واللام فأجري مجراها. وقرئ: «منكم» وهي في مصاحف أهل الشام. ﴿وَءَاثَارًا﴾ يريد حصونهم وقصورهم وعددهم، وما يوصف بالشدّة من آثارهم. أو: أرادوا أكثر آثاراً، كقوله [من مجزء الكامل]:

. . . . . مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحاً[1]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجة ظاهرة وهي المعجزات، فقالوا: هو ساحر كذاب، فسموا السلطان المبين سحراً وكذباً ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالنبوّة، فإن قلت: أما كان قتل الأبناء واستحياء النساء من قبل خيفة أو يولد المولود الذي أنذرته الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده؟ قلت: قد كان ذلك القتل حينئذ، وهذا قتل آخر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟﴾ أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولاً، يريد: أن هذا قتل غير القتل الأول: ﴿فِى ضَلَـٰلٍ﴾ في ضياع وذهاب، باطلاً لم يجد عليهم، يعني: أنهم باشروا قتلهم أولاً فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغني عنهم هذا القتل الثاني، وكان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان، فلما بعث موسى وأحسّ بأنه قد وقع: أعاده عليهم غيظاً وحنقاً، وظناً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى، وما علم أنّ كيده ضائع في الكرتين جميعاً.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

---

(١) ورأيت زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحا

الوغى: الحرب. ورمحاً: نصب بمحذوف يناسبه، أي: متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً. وروي بدل الشطر الأول:

يا ليت زوجك قد غدا . . . . . .

أي: ذهب إلى الحرب غدوة لابساً سلاحه.

البيت لعبد الله بن الزبعري. انظر الخصائص (٢/ ٤٣١)، أمالي ابن الشجري (٢/ ٣٢١)، الإنصاف (٢/ ٦١٢)، شرح المفصل لابن يعيش (٢/ ٥٠)، الكامل (١/ ٣٣٤)، مجاز القرآن (٢/ ٦٨)، تأويل المشكل (٢١٤)، شرح القصائد العشر (٢٤٧)، المقتضب ٢/ ٥٠، الطبري (١١/ ٥٧٧)، والبحر المحيط ١/ ٧٧، والدر المصون ١/ ١٠٧.

﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ كانوا إذا هم بقتله كفوه بقولهم: ليس بالذي تخافه، وهو أقل من ذلك وأضعف، وما هو إلا بعض السحرة، ومثله لا يقاوم إلاّ ساحراً مثله، ويقولون: إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة، والظاهر أنّ فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبيّ، وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خب وجربزة، وكان قتالاً سفاكاً للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك. وقوله: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه، وكان قوله: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ تمويهاً[1] على قومه، وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلاّ ما في نفسه من هول الفزع. ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ أن يغير ما أنتم عليه، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام، بدليل قوله: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: ١٢٧] والفساد في الأرض: التفاتن والتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش، ويهلك الناس قتلاً وضياعاً، كأنه قال: إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه. أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه. وفي مصاحف أهل الحجاز: «وأن يظهر» بالواو، ومعناه. إني أخاف فساد دينكم ودنياكم معاً. وقرئ: «يُظْهِرُ» من «أظهر»[2]، و«الفساد» منصوب، أي: يظهر موسى الفساد. وقرئ: «يَظَّهَّر» بتشديد الظاء والهاء، من تظهر بمعنى تظاهر، أي: تتابع وتعاون.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله قال ٢/ ١٥٢أ لقومه: ﴿إِنِّي عُذۡتُ﴾ بالله الذي هو ربي وربكم، وقوله: ﴿وَرَبِّكُم﴾ فيه بعث لهم على أن يقتدوا به، فيعوذوا بالله عياذه، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه، وقال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ﴾ لتشمل

---

(١) قال محمود: «كانوا إذا هم بقتله كفوه عنه بقولهم: ليس هذا ممن يخاف، وإنما هو ساحرٌ لا يقاومه إلاّ مثله، وقتله بوقع الشبهة عند الناس أنك إنما قتلته خوفاً، وكان فرعون لعنه الله في ظاهر أمره ـ والله أعلم ـ عالماً أنه نبي خائفاً من قتله مع رغبته في ذلك لولا الجزع، وأراد أن يكتم خوفه من قتله بأن يقول لهم: ذروني أقتله؛ ليكفوه عنه فينسب الانكفاف عن قتله إليهم، لا إلى جزعه وخوفه. ويدل على خوفه منه لكونه نبياً قوله: (وليدع ربه) وهذا من تمويهاته المعروفة، قال أحمد: هو من جنس قوله: (إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون) فقد تقدم أن مراده بذلك أن يظهر لقومه قلة احتفاله بهم، ويوهمهم أن قتله لهم ليس خوفاً منهم، ولكن غيظاً عليهم، وكان من عادته الحذر والتحصن وحماية الذريعة في المحافظة على حوزة المملكة، لا أن ذلك خوف وهلع، ولقد كذب، إنما كان فؤاده مملوءاً رعباً.

(٢) قوله: «وقرئ: يظهر من أظهر» يفيد أن القراءة المشهورة: يظهر من ظهر، والفساد مرفوع. (ع).

استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض؛ فيكون أبلغ، وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه، وعلى فرط ظلمه وعسفه، وقال: ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة إلاّ ارتكبها. و«عذت» ولذت أخوان. وقرئ: «عت»، بالإدغام.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ وقرئ: «رجل» بسكون الجيم، كما يقال: عضد في عضد، وكان قبطيا ابن عم لفرعون، آمن بموسى سرًّا وقيل: كان إسرائيليًّا و﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة لرجل. أو صلة ليكتم، أي: يكتم إيمانه من آل فرعون، واسمه سمعان أو حبيب، وقيل: خربيل أو حزبيل، والظاهر أنه كان من آل فرعون فإنّ المؤمنين من بني إسرائيل لم يقلّوا ولم يعزُّوا. والدليل عليه قول فرعون: ﴿أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُ﴾ [غافر: ٢٥]. وقول المؤمن: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩] دليل ظاهر على أنه يتنصَّح لقومه. ﴿أَن يَقُولَ﴾ لأن يقول، وهذا إنكار منه عظيم وتبكيت شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة، وما لكم علة قط في ارتكابها إلاّ كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله: ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة، ولكن بينات عدّة من عند من نسب إليه الربوبية، وهو ربكم لا ربه وحده، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به، وليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم[1]، ولك أن تقدر مضافاً محذوفاً، أي: وقت

---

(١) قال محمود: «الظاهر أن الرجل من آل فرعون، وقيل: إنه من بني إسرائيل. ومن آل فرعون: متعلق بيكتم، تقديره: يكتم إيمانه من آل فرعون، وهو بعيد؛ لأن بني إسرائيل كان إيمانهم ظاهراً فاشياً، ولقد استدرجهم هذا المؤمن في الإيمان باستشهاده على صدق موسى بإحضاره عليه السلام من عند من تنسب إليه الربوبية ببينات عدة لا بينة واحدة، وأتى بها معرفة، معناه: البينات العظيمة التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك؛ ليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم... إلخ، قال أحمد: لقد أحسن الفهم والتفطن لأسرار هذا القول، ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا قوله تعالى: (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف، وإن كان الصادق وهو يوسف دونها؛ لرفع التهمة وإبعاد الظن؛ وإدلالاً بأن الحق معه، ولا يضره التأخير لهذه الفائدة. وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة ما في قصة يوسف مع أخيه؛ إذ بدأ =

أن يقول. والمعنى: أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره؟[١]. وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يريد: بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً، ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ﴾ ما يعدكم إن تعرّضتم له. فإن قلت: لم قال: بعض ﴿ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وهو نبيّ صادق، لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟ قلت: لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى ومناكريه إلى أن يلاوصهم[٢] ويداريهم، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول، ويأتيهم من وجهة المناصحة، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، فقال: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وهو كلام المنصف[٣] في مقاله غير المشتط فيه؛ ليسمعوا منه ولا يردّوا عليه، وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أردفه ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً، فضلاً أن يتعصب له، أو يرمى بالحصا من ورائه، وتقديم الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القبيل، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾. فإن قلت: فعن أبي عبيدة أنه فسر البعض بالكل، وأنشد بيت لبيد [من الكامل]:

تَـرَّاكُ أَمْـكِـنَـةٍ إِذَا لَـمْ أَرْضَـهَـا ... أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضُ النُّفُوسِ حِمَامَهَا[٤]

= بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، حتى قيل: إنه لما انتهى إليه قال: اللهم ما سرق هذا ولا هو بوجه سارق، فاطمأنت أنفسهم وانزاحت التهمة عن يوسف أن يكون قصد ذلك، فقالوا: والله لنفتشنه، فاستخرجها من وعائه.

(١) قال السمين الحلبي: رده الشيخ: بأن تقدير هذا الوقت لا يجوز إلا مع الوقت المُصَرَّح به تقول: جئتك صياح الديك أي: وقت صياحه، ولو قلت: أجيئك أن صاح الديك، أو أن يصيح، لم يَصِحّ، نص عليه النحويون. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «إلى أن يلاوصهم ويداريهم» في الصحاح: فلان يلاوص الشجر، أي: ينظر كيف يأتيها لقلعها. (ع).

(٣) وطريقة هذا اللون توحي بمقصود المتكلم وإن خالفت ظاهر العبارة، وقد أشار الزمخشري ومعه أبو السعود ونحوهم أن هذه الطريقة أدخل في النفس وإن كان معانداً وأجلب له وإن اشتط في إعراضه، ولهذا تكون غالباً في مقامات الحوار والجدل، وقد اتخذها النبيون والمرسلون في طريقة محاورة الخصوم والمعاندين، وهذا ما تراه في قوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ [سبأ: ٢٤].

وقد علق ابن المنير على هذا اللون بأنه «تفسير مهذب وافتنان مستعذب».

«يراجع البلاغة القرآنية لأبي موسى ٣٨٢ وما بعدها.

(٤) تقدم.

قلت: إن صحت الرواية عنه، فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلقي: كان أجفى من أن يفقه ما أقول له. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ يحتمل أنه إن كان مسرفاً كذاباً خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر، فيتخلصون منه، وأنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوّة، ولما عضده بالبينات. وقيل: ما تولى أبو بكر من رسول الله ﷺ كان أشدّ من ذلك، طاف ﷺ بالبيت، فلقوه حين فرغ، فأخذوا بمجامع ردائه فقالوا له: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا، فقال: أنا ذاك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فالتزمه من ورائه وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم، رافعاً صوته بذلك، وعيناه تسفحان، حتى أرسلوه (١٣٥٦). وعن جعفر الصادق: أنّ مؤمن آل فرعون قال ذلك سرًّا، وأبو بكر قاله ظاهراً.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض مصر عالين فيها على بني إسرائيل، يعني: أنّ لكم ملك مصر، وقد علوتم الناس، وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه، فإنه لا قبل لكم به إن جاءكم، ولا يمنعكم منه أحد. وقال: ﴿يَنصُرُنَا﴾ و﴿جاءنا﴾ لأنه منهم في القرابة، وليعلمهم بأنّ الذي ينصحهم ٢/ ١٥٢ب به هو مساهم لهم فيه. ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أشير عليكم برأي إلاّ بما أرى من قتله، يعني: لا أستصوب إلاّ قتله، وهذا الذي تقولونه غير صواب. ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ يريد: سبيل الصواب والصلاح. أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب، ولا أدّخر منه شيئاً، ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهر، يعني: أنّ لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب؛ فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى.

١٣٥٦ ـ أخرجه البخاري (٧/ ٣٧١)، كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً...» رقم (٣٦٧٨)، (٧/ ٥٥٥)، كتاب: مناقب الأنصار، باب: ما لقي النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه من المشركين بمكة، رقم (٣٨٥٦)، (٩/ ٥١٨)، كتاب: التفسير، باب: سورة المؤمن، رقم (٤٨١٥)، وأحمد (٢/ ٢٠٤، ٢١٨)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٧٤ ـ ٢٧٦)، باب: ذكر ما لقي الرسول وأصحابه...»، وابن حبان (١٤/ ٥٢٥ ـ ٥٢٧)، كتاب: التاريخ باب: كتب النبي ﷺ، رقم (٦٥٦٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٨ ـ ١٩)، وقال: في الصحيح طرف منه ورواه أحمد، وقد صرح ابن إسحق بالسماع، وبقية رجاله رجال الصحيح. قال الحافظ ابن حجر: أخرجه النسائي من طريق هشام عن عروة عن أبيه عن عمرو بن العاص، وابن حبان من طريق يحيى بن عروة عن عروة عن عبد الله بن عمرو بن العاص أتم منه. قلت: علقه البخاري نحوهما. انتهى.

ولكنه كان يتجلد، ولولا استشعاره لم يستشر أحداً ولم يقف الأمر على الإشارة. وقرئ: «الرشاد» فعال من رشد بالكسر، كعلام. أو من رشد بالفتح كعباد، وقيل: هو من أرشد كجبار من أجبر، وليس بذلك؛ لأنّ فعالاً من أفعل لم يجئ إلاّ في عدّة أحرف، نحو: درّاك وسآرا وقصار وحبّار، ولا يصحّ القياس على القليل. ويجوز أن يكون نسبة إلى الرشد، كعوّاج وبتات[1]، غير منظور فيه إلى فعل.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾

﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ مثل أيامهم؛ لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود، ولم يلبس أنّ كلّ حزب منهم كان له يوم دمار، اقتصر على الواحد من الجمع؛ لأنّ المضاف إليه أغنى عن ذلك كقوله [من الوافر]:

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا ..... [2]

وقال الزجاج: مثل يوم حزب حزب، ودأب هؤلاء: دأبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي، وكون ذلك دائباً دائماً منهم لا يفترون عنه، ولا بدَّ من حذف مضاف، يريد: مثل جزاء دأبهم. فإن قلت: بم انتصب ﴿مِّثْلَ﴾ الثاني؟ قلت: بأنه عطف بيان لمثل الأوّل؛ لأنّ آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح، ولو قلت: أهلك الله الأحزاب: قوم نوح وعاد وثمود، لم يكن إلاّ عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام، فسرى ذلك الحكم إلى أوّل ما تناولته الإضافة ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ يعني: أن تدميرهم كان عدلاً وقسطاً؛ لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] حيث جعل المنفي إرادة الظلم؛ لأنّ من كان عن إرادة الظلم بعيداً، كان عن الظلم

---

(١) قوله: «كعواج وبتات» أي: صاحب العاج، والعاج: عظم الفيل. والبتات: الذي يبيع البتوت، أو يعملها. والبت: الطيلسان من الخز، كذا في الصحاح. (ع).

(٢) كلوا في بعض بطنكم تعفوا فإن زمانكم زمن خميص

أي كلوا في بعض بطونكم. وأفرد البطن لأمن اللبس، أي: لا تملئوها، فإن أطعمتوني عففتم عن الطعام، وعف يعف ـ بكسر عين المضارع، من باب ضرب يضرب، ثم قال: فإن زمانكم، أي أمرتكم بذلك؛ لأن زمانكم مجدب. والخميص: الضامر البطن، فشبه الزمان المجدب بالرجل الجائع على طريق الكناية، ووصفه بالخمص تخييل لذلك.

ينظر: أسرار العربيّة ص ٢٢٣، وتخليص الشواهد ص ١٥٧، وخزانة الأدب ٧/ ٥٣٧، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٣، والدرر ١/ ١٥٢، وشرح أبيات سيبويه ١/ ٣٧٤، وشرح المفصّل لابن يعيش ٥/ ٨، ٦/ ٢١، والكتاب ١/ ٢١٠، والمحتسب ٢/ ٨٧، والمقتضب ٢/ ١٧٢، وهمع الهوامع ١/ ٥٠.

أبعد. وحيث نكر الظلم، كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده[1]. ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] أي: لا يريد لهم أن يظلموا؛ يعني أنه دمّرهم لأنهم كانوا ظالمين[2].

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

«التنادي» ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف من قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور. وقرئ بالتشديد، وهو أن يندّ بعضهم من بعض؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ [عبس: ٣٤] وعن الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندّوا هرباً، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلاّ وجدوا ملائكة صفوفاً، فبينا هم يموج بعضهم في بعض؛ إذ سمعوا منادياً: أقبلوا إلى الحساب. ﴿تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ عن قتادة: منصرفين عن موقف الحساب إلى النار. وعن مجاهد: فارّين عن النار غير معجزين.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام. وقيل: هو يوسف بن إبراهيم[3] بن يوسف بن يعقوب: أقام فيهم نبيًّا عشرين سنة. وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف، عمر إلى زمنه، وقيل: هو فرعون آخر. وبخهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات فشككتم فيها ولم تزالوا

---

(١) قوله: «كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده» هذا على مذهب المعتزلة من أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده، وأن الإرادة بمعنى الرضا. وعند أهل السنة أنه تعالى يخلق الشر ويريده كالخير ولا يرضى الشر، فالرضا غير الإرادة عندهم، كما تقرر في التوحيد. (ع).

(٢) قال محمود: «يجوز أن يكون معناه معنى: (وما ربك بظلام للعبيد). وهذا أبلغ؛ لأنه إذا لم يرد الظلم كان عن فعله الظلم أبعد، وحيث نكر الظلم أيضاً، كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده. قال: ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله: (ولا يرضى لعباده الكفر) فيكون المعنى: أن الله لا يريد لعباده أن يظلموا؛ لأنه ذمهم على كونهم ظالمين» قال أحمد: هذا من الطراز الأول، وقد تقدم مذهب أهل السنة فيما يتعلق بإرادة الله تعالى خلافاً لهذا وأشياعه.

(٣) قوله: «وقيل: هو يوسف بن إبراهيم» عبارة النسفى: (ع).

شاكين كافرين. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ قبض ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ حكماً من عند أنفسكم من غير برهان وتقدمة عزم منكم على تكذيب الرسل، فإذا جاءكم رسول جحدتم وكذبتم بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه، وليس قولهم: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ بتصديق لرسالة يوسف، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها، وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته. وقرئ: «ألن يبعث الله» على إدخال همزة الاستفهام على حرف النفي، كأن بعضهم يقرّر بعضاً بنفي البعث. ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أي مثل هذا الخذلان المبين[1] يخذل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه. ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ بدل من ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، فإن قلت: كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذاك موحد؟ قلت: لأنه لا يريد مسرفاً واحداً، فكأنه قال: كل مسرف. فإن قلت: فما فاعل ﴿كَبُرَ﴾؟ قلت: ضمير ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾. فإن قلت: أما قلت: هو جمع، ولهذا أبدلت منه الذين يجادلون؟ قلت: بلى هو جمع في المعنى. وأما ٢/١٥٣أ اللفظ فموحد، فحمل البدل على معناه، والضمير الراجع إليه على لفظه، وليس ببدع[2] أن يحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى، وله نظائر، ويجوز أن يرفع ﴿الذين يجادلون﴾ على الابتداء، ولا بدّ في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في كبر، تقديره: جدال الذين يجادلون كبر مقتاً، ويحتمل أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ مبتدأ؛ و﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ خبراً[3]،

---

(١) قوله: «أي مثل هذا الخذلان المبين» المعتزلة يؤولون الإضلال بالخذلان والترك، بناء على مذهبهم: أن الله لا يخلق الشر. وأهل السنة يفسرونه بخلق الضلال في القلب، بناء على أنه تعالى بخلق الشر كالخير كما بين في التوحيد. (ع).

(٢) قال محمود: «(الذين يجادلون) بدل من (من هو مسرف)؛ لأن المراد (كل مسرف). وجاز إبداله على معنى (من)، لا على لفظها. قال: فإن قلت: ما فاعل كبر؟ وأجاب بأنه ضمير (من هو مسرف)، فحمل البدل على المعنى، والضمير على اللفظ، وليس ببدع» اه كلامه. قال أحمد: فيما ذكره معاملة لفظ (من) بعد معاملة معناها، وهذا مما قدمت أن أهل العربية استغربونه، والأولى أن يجتنب في إعراب القرآن، فإن فيه إبهاماً بعد إيضاح، والمعهود في قراءة البلاغة عكسه، والصواب أن يجعل الضمير في قوله(كبر) راجعاً إلى مصدر الفعل المتقدم، وهو قوله: (يجادلون) تقديره: كبر جدالهم مقتًا، ويجعل(الذين) مبتدأ، على تأويل حذف المضاف، تقديره: جدال الذين يجادلون في آيات الله، والضمير في قوله(كبر مقتا) عائد إلى الجدال المحذوف، والجملة مبتدأ وخبر. ومثله في حذف المصدر المضاف وبناء الكلام عليه قوله تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله) على أحد تآويله، ومثله كثير. وفيه سوى ذلك من الوجوه السالمة عما يتطرق إلى الوجه المتقدم، فالوجه العدول عنه.

(٣) قال السمين الحلبي: وردَّه الشيخُ بأنَّ فيه تفكيك الكلام بعضَه من بعض؛ لأنَّ الظاهرَ تَعَلُّقُ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ بِيُجَادِلُونَ، ولا يُعْقَلُ جَعْلُه خَبَراً لِلَّذِينَ؛ لأنه جارٌ ومجرور، فيصير التقدير: الَّذِينَ يُجَادِلُونَ كائِنُونَ أَوْ مُسْتَقِرُّونَ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ، أي في غَيْرِ سُلْطَانٍ، لأنَّ الباءَ إذ ذَاك ظرفيةٌ خَبَرٌ عن الجُثَثِ. انتهى. الدر المصون.

وفاعل كبر قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كبر مقتاً مثل ذلك الجدال، و﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ كلام مستأنف، ومن قال: كبر مقتاً عند الله جدالهم، فقد حذف الفاعل، والفاعل لا يصحّ حذفه[1]. وفي ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم، والشهادة على خروجه من حدّ إشكاله من الكبائر. وقرئ: «سلطان» بضم اللام. وقرئ: «قلب» بالتنوين، ووصف القلب بالتكبر والتجبر؛ لأنه مركزهما ومنبعهما، كما تقول: رأت العين، وسمعت الأذن. ونحوه قوله عزّ وجل: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وإن كان الآثم هو الجملة. ويجوز أن يكون على حذف المضاف، أي: على كل ذي قلب متكبر، تجعل الصفة لصاحب القلب.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

قيل: الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر، و﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها، وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه، كالرشاء ونحوه، فإن قلت: ما فائدة هذا التكرير، ولو قيل: لعلي أبلغ أسباب السمٰوات لأجزأ؟ قلت: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السمٰوات أبهمها ثم أوضحها؛ ولأنه لما كان بلوغها أمراً عجيباً أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه؛ ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان، ثم أوضحه. وقرئ: «فأطلع» بالنصب[2] على جواب الترجي، تشبيهاً للترجي بالتمني. ومثل ذلك التزيين وذلك الصدّ ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ والمزين: إما الشيطان بوسوسته، كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤] أو الله تعالى على وجه التسبيب؛ لأنه مكن[3] الشيطان وأمهله. ومثله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]. وقرئ: «وزَيَّنَ له سوءَ عمله»[4] على البناء للفاعل والفعل لله عزّ وجلّ، دلّ عليه قوله: ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ وصدّ،

---

(١) قال السمين الحلبي: القائل بذلك هو الحوفي لكنه لا يريد بذلك تفسير الإعراب إنما يريد به تفسير المعنى، وهو معنى ما قدّمتهُ من أنَّ الفاعل ضميرٌ يعود على جدالهم المفهوم من فِعْلِهِ، فَصَرَّحَ الحوفيُّ بالأصل وهو الاسمُ الظاهر ومراده ضميرٌ يعود عليه. انتهى. الدر المصون.

(٢) «وقرئ: (فأطلع) بالنصب» يفيد أن القراءة المشهورة بالرفع على العطف. (ع).

(٣) قوله: «على وجه التسبيب لأنه مكن» أول بهذا؛ لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فيخلقه كالخير فلا حاجة إلى هذا التأويل، وتبقى الآية على ظاهرها. (ع).

(٤) قوله: «وقرئ وزين له سوء عمله» أي بدل قوله تعالى: (وكذلك زين لفرعون سوء عمله). (ع).

بفتح الصاد وضمها وكسرها، على نقل حركة العين إلى الفاء، كما قيل: قيل. والتباب: الخسران والهلاك. وصدّ: مصدر معطوف على سوء عمله وصدّوا هو وقومه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾

قال: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فأجمل لهم، ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها؛ لأنّ الإخلاد إليها هو أصل الشرّ كله، ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة. وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها، وأنها هي الوطن والمستقرّ. وذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما؛ ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف، ثم وازن بين الدعوتين: دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وحذر وأنذر، واجتهد في ذلك واحتشد، لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون، وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين، وهو قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ وفي هذا أيضاً دليل بيّن على أن الرجل كان من آل فرعون. والرشاد نقيض الغي. وفيه تعريض شبيه بالتصريح أنّ ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ﴾ لأنّ الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة؛ لأنها ظلم. وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة؛ لأنها فضل. قرئ: «يَدْخُلُون» ويُدْخَلُون. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ واقع في مقابلة إلاّ مثلها، يعني: أن جزاء السيئة له حساب وتقدير؛ لئلا يزيد على الاستحقاق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب، بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة.

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾

فإن قلت: لم كرر نداء قومه؟ ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟ قلت: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة. وفيه: أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم، وهو يعلم وجه خلاصهم، ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يتحزن لهم ويتلطف

بهم، ويستدعي بذلك ٢/١٥٣ب أن لا يتهموه، فإنّ سرورهم سروره، وغمهم غمه، وينزلوا على تنصيحه لهم، كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾. وأما المجيء بالواو العاطفة، فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له، فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو، وأما الثالث: فداخل على كلام ليس بتلك المثابة. يقال: دعاه إلى كذا ودعاه له، كما تقول: هداه إلى الطريق وهداه له ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: بربوبيته، والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله، وما ليس بإله كيف يصحّ أن يعلم إلهاً؟[1].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾ سياقه على مذهب البصريين: أن يجعل (لا) ردًا لما دعاه إليه قومه. وجرم: فعل بمعنى حق، وأنّ مع ما في حيزه فاعله، أي: حق ووجب بطلان دعوته. أو بمعنى: كسب، من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢] أي: كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته، على معنى أنه ما حصل من ذلك إلاّ ظهور بطلان دعوته. ويجوز أن يقال: أن لا جرم، نظير: لا بدّ، فعل من الجرم، وهو القطع، كما أن بدّاً فعل من التبديد وهو التفريق، فكما أن معنى: لا بد أنك تفعل كذا، بمعنى: لا بد لك من فعله، فكذلك لا جرم أن لهم النار، أي: لا قطع لذلك، بمعنى أنهم أبداً يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع؛ لبطلان دعوة الأصنام، أي: لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقًّا. وروي عن العرب: لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء، بزنة بد، وفعل وفعل: أخوان. كرشد ورشد، وعدم وعدم. ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ معناه: أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط، أي: من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته، ثم يدعو العباد إليها إظهاراً لدعوة ربهم وما تدعون إليه وإلى عبادته، لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدّعي الربوبية، ولو كان حيواناً ناطقاً لضجّ من دعائكم. وقوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني أنه في الدنيا جماد لا يستطيع شيئاً من دعاء وغيره، وفي الآخرة: إذا أنشأه الله حيواناً، تبرأ من الدعاة إليه ومن عبدته.

---

(١) قال محمود: «المراد بنفي العلم نفي المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله، وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلهاً؟» قال أحمد: وهذا من قبيل «على لا حب لا يهتدي بمناره» أي: لا منار له فيهتدى به، وكلام الزمخشري ههنا أشد من كلامه على قوله تعالى حكاية عن فرعون: (ما علمت لكم من إله غيري).

وقيل: معناه ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ولا في الآخرة. أو دعوة مستجابة، جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ولا منفعة فيها كلا دعوة. أو سميت الاستجابة باسم الدعوة، كما سمي الفعل المجازي عليه باسم الجزاء في قولهم: كما تدين تدان. قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]. ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ عن قتادة: المشركين. وعن مجاهد: السفاكين للدماء بغير حلها. وقيل: الذين غلب شرهم خيرهم هم المسرفون. وقرئ: «فستذكرون». أي: فسيذكر بعضكم بعضاً. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأنهم توعدوه.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم. وقيل: نجا مع موسى، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ ما هموا به من تعذيب المسلمين، ورجع عليهم كيدهم. ﴿ٱلنَّارُ﴾ بدل من سوء العذاب. أو خبر مبتدإ محذوف، كأن قائلاً قال: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار. أو مبتدأ خبره ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وفي هذا الوجه تعظيم للنار وتهويل من عذابها، وعرضهم عليها: إحراقهم بها. يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به، وقرئ: «النار» بالنصب، وهي تعضد الوجه الأخير. وتقديره: يدخلون النار يعرضون عليها، ويجوز أن ينتصب على الاختصاص. ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ في هذين الوقتين يعذبون بالنار، وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم، فأمّا أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب، أو ينفس عنهم. ويجوز أن يكون ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: عبارة عن الدوام، هذا ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة قيل لهم: ادْخُلوا[1] يا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ﴾ عذاب جهنم. وقرئ: ﴿أدخلوا آل فرعون﴾ أي: يقال لخزنة جهنم: أدخلوهم. فإن قلت: قوله: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ معناه: أنه رجع عليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين، كقول العرب: من حفر لأخيه جبًّا وقع فيه منكبًّا، فإذا فسر سوء العذاب بنار جهنم: لم يكن مكرهم راجعاً عليهم؛ لأنهم لا يعذبون بجهنم. قلت: يجوز أن يهم الإنسان بأن يغرق قوماً فيحرق بالنار، ويسمى ذلك حيقاً؛ لأنه همّ بسوء، فأصابه ما يقع عليه اسم السوء. ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه، ويجوز أن يهمّ فرعون ـ لما سمع إنذار المسلمين بالنار، وقول المؤمن: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] ـ فيفعل نحو ما فعل نمروذ ويعذبهم بالنار، فحاق به مثل ما أضمره وهمَّ بفعله. ويستدلّ ٢/ ١٥٤أ بهذه الآية على إثبات عذاب القبر.

---

(١) وهي قراءة من القراءات.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾

واذكر وقت يتحاجون ﴿تَبَعًا﴾ تباعاً، كخدم في جمع خادم. أو ذوي تبع، أي: أتباع، أو وصفاً بالمصدر.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾

وقرئ: «كلاً» على التأكيد لاسم إن، وهو معرفة، والتنوين عوض من المضاف إليه، يريد: إنا كلنا، أو كلنا فيها[1]. فإن قلت: هل يجوز أن يكون «كلاً» حالاً قد عمل (فيها) فيها؟ قلت: لا لأن الظرف لا يعمل في الحال متقدمة كما يعمل في الظرف متقدماً تقول: كل يوم لك ثوب، ولا تقول: قائماً في الدار زيد. ﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ قضى بينهم وفصل بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ للقوّام بتعذيب أهلها. فإن قلت: هلا قيل: الذين في النار لخزنتها؟ قلت: لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعراً، من قولهم: بئر جهنام بعيدة القعر[2]، وقولهم في النابغة: جهنام، تسمية بها، ؛لزعمهم أنه يلقي الشعر على لسان المنتسب إليه، فهو بعيد الغور في علمه بالشعر[3]، كما قال أبو نواس في خلف الأحمر [من الرجز]:

قُلَيْذِمٌ مِنَ الْعَيَالِيمِ الْخُسُفْ[4]

---

(١) قال السمين الحلبي: قلت: وليس هذا مذهباً للزمخشري وحده بل هو منقول عن الكوفيين أيضاً. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «بئر جهنام بعيدة القعر... إلخ» في الصحاح: بكسر الجيم والهاء.(ع).

(٣) قال محمود:«فإن قلت: فهلا قيل: لخزنتها، وأجاب أن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعراً من قولهم: بئر جهنام، أي: بعيدة القعر، وكان النابغة يسمي الجهنام لبعد غوره في الشعر» قال أحمد: الأول أظهر، والتفخيم فيه من وجهين، أحدهما: وضع الظاهر موضع المضمر، وهو الذي أشار إليه، والثاني: ذكره وهو شيء واحد بظاهر غير الأول أفظع منه؛ لأن جهنم أفظع من النار؛ إذ النار مطلقة» وجهنم أشدها.

(٤) أودى جميع العلم مذ أودى خلف ... من لا يعد العلم إلا ما عرف
رواية لا يجتنى من الصحف ... قليذم من العياليم الخسف =

وفيها أعتى الكفار وأطغاهم، فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله تعالى؛ فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم. ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾ إلزام للحجة وتوبيخ، وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع، وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله لها الدعوات. ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أنتم، فإنا لا نجترىء على ذلك ولا نشفع إلاّ بشرطين: كون المشفوع له غير ظالم، والإذن في الشفاعة مع مراعاة وقتها، وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين، وليس قولهم ﴿فَادْعُوا﴾ لرجاء المنفعة، ولكن للدلالة على الخيبة؛ فإن الملك المقرّب إذا لم يسمع دعاؤه، فكيف يسمع دعاء الكافر.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، يعني: أنه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على مخالفيهم، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم، ويتيح الله من يقتص[1] من أعدائهم ولو بعد حين. والأشهاد: جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، يريد: الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمّة محمد ﷺ، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. واليوم الثاني بدل من الأوّل، يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة ولكنها لا تنفع لأنها باطلة، وأنهم لو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة[2] لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٣٦]،

= لأبي نواس يرثي خلف الأحمر بن أحمد. وأودى هلك ومن لا يعد العلم صفة خلف، أي: لا يعتبر من العلم إلا بما عرفه حق اليقين وتلقاه بالتلقين. أو عرفه بالاستنباط من قواعد السابقين، فهو رواية، أي كثير الرواية لا يأخذ من الكتب، شبهها بالروضة المثمرة على طريق المكنية، والاجتناء تخييل. والقليذم: البئر الغزيرة الماء. والعيلم: الحفرة الكثيرة الماء. والخسف: البعيدة الغور العميقة، شبهه بذلك تشبيها بليغاً؛ لكثرة علمه ومعرفته للمعاني البعيدة الخفية.
ينظر: ديوانه ٢/ ١٤١، وتاج العروس: (خسف)، (علم)، ولسان العرب: (علم)، ومقاييس اللغة: ٢/ ١٨١.

(١) قوله: «من يقتص» أي: يقدر. (ع).

(٢) قال محمود: «يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة لكنها لا تنفعهم؛ لأنها باطلة. ويحتمل أنهم لا يعتذرون، ولو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة «قال أحمد: «هما الاحتمالان في قوله تعالى: (ولا شفيع يطاع) ولكن بين الموضعين فرقاً يصير أحدهما معه عكس الآخر؛ وذلك أنه هنا على تقدير أن يكون المراد أنهم لا معذرة لهم البتة، يكون قد نفى صفة المعذرة وهي المنفعة التي لها تراد المعذرة، قطعاً لرجائهم كي لا يعتذروا البتة، كأنه قيل: إذا لم يحصل ثمرة المعذرة فكيف يقع ما لا ثمرة له، وفي الآية المتقدمة جعل نفي الموصوف بتا لنفي الصفة؛ ولهذا أولى النفي في هذه الآية الفعل، وفي المتقدمة أولى النفي الذات المنسوب إليها الفعل.

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ البعد من رحمة الله. ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: سوء دار الآخرة، وهو عذابها. وقرئ: «تقوم»، و «لا تنفع»، بالتاء والياء.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾

يريد بالهدى: جميع ما آتاه في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع. ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ وتركنا على بني إسرائيل من بعده ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ إرشاداً وتذكرة، وانتصابهما على المفعول له أو على الحال. وأولوا الألباب: المؤمنون به العاملون بما فيه.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني أن نصرة الرسل في ضمان الله، وضمان الله لا يخلف، واستشهد بموسى وما آتاه من أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده، وإبقاء آثار هداه في بني إسرائيل، والله ناصرك كما نصرهم، ومظهرك على الدين كله، ومبلغ ملك أمّتك مشارق الأرض ومغاربها، فاصبر على ما يجرّعك قومك من الغصص؛ فإن العاقبة لك، وما سبق به وعدي من نصرتك وإعلاء كلمتك حق، وأقبل على التقوى واستدرك الفرطات بالاستغفار، ودم على عبادة ربك والثناء عليه ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ وقيل: هما صلاتا العصر والفجر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إلا تكبر وتعظم، وهو إرادة التقدّم والرياسة، وأن لا يكون أحد فوقهم؛ ولذلك عادوك ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدّمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك؛ لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة. أو إرادة أن تكون لهم النبوّة دونك حسداً وبغياً. ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] أو إرادة دفع الآيات بالجدال: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي: ببالغي موجب الكبر ومقتضيه، وهو متعلق إرادتهم من الرياسة أو النبوّة أو دفع الآيات. وقيل: المجادلون هم ٢/ ١٥٤ب اليهود، وكانوا يقولون: يخرج صاحبنا المسيح ابن داود، يريدون الدّجال، ويبلغ سلطانه البر

والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك، فسمى الله تمنيهم ذلك كبراً، ونفى أن يبلغوا متمناهم. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فالتجىء إليه من كيد من يحسدك ويبغي عليك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقول ويقولون ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بما تعمل ويعملون، فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرّهم.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

فإن قلت: كيف اتصل قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بما قبله؟ قلت: إن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها، فحجوا بخلق السمٰوات والأرض لأنهم كانوا مقرّين بأن الله خالقها وبأنها خلق عظيم لا يقادر قدره، وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله[1]، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

ضرب الأعمى والبصير مثلاً للمحسن والمسيىء. وقرئ: «يتذكرون» بالياء والتاء، والتاء أعم.

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: كيف اتصل قوله (لخلق السموات والأرض) بما قبله؟ وأجاب بأن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها، فحجوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها، وبأنها خلق عظيم، فخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على الإنسان الضعيف أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله، قال أحمد: الأولوية في هذا الاستشهاد ثابتة بدرجتين، أحدهما ما ذكره من أن القادر على العظيم هو على الحقير أقدر. الثانية: أن مجادلتهم كانت في البعث وهو الإعادة ولا شك أن الابتداء أعظم وأبهر من الإعادة، فإذا كان ابتداء خلق العظيم يعني السموات والأرض داخلاً تحت القدرة فابتداء خلق الحقير: يعني الناس أدخل تحتها، وإعادته أدخل من ابتدائه، فهو أولى بأن يكون مقدوراً عليه مما اعترفوا به من خلق السموات والأرض بدرجتين، وإلى هذا الترتيب وقعت الإشارة بقوله تعالى في: (ألم غلبت الروم): (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) فقرر أن قيام السماء والأرض هو بأمره، أي: خلقها من آياته، فكيف بما هو أحط من قيامها بدرجتين وهو إعادة البشر أهون عليه من الابتداء ليتحقق الدرجتان المذكورتان، فقال تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)؛ وإذا تأملت الذي ذكرته منسوباً لما ذكره الزمخشري، علمت أن ما ذكره هو لباب المراد، فجدد عهداً به إن لم تعلم ذلك.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا بد من مجيئها ولا محالة، وليس بمرتاب فيها؛ لأنه لا بد من جزاء. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون بها.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ اعبدوني، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ والاستجابة: الإثابة؛ وفي تفسير مجاهد: اعبدوني أثبكم. وعن الحسن ـ وقد سئل عنها ـ: اعملوا وأبشروا؛ فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله. وعن الثوري أنه قيل له: ادع الله، فقال: إن ترك الذنوب هو الدعاء. وفي الحديث: «إذا شغل عبدي طاعتي عن الدعاء، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» (١٣٥٧) وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن

١٣٥٧ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٢٠): غريب وقد ورد الحديث بلفظ «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين». وإليك تخريجه.

أخرجه الترمذي (٥/ ١٨٤) كتاب فضائل القرآن: باب (٢٥) حديث (٢٩٢٦)، والدارمي (٢/ ٤٤١) كتاب فضائل القرآن: باب فضل كلام الله على سائر الكلام، وابن نصر في «قيام الليل» (ص ٧١)، والعقيلي في «الضعفاء (٤/ ٤٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٢٣٨) كلهم من طريق محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد الخدري به مرفوعاً وقال الترمذي: حديث حسن غريب. والحديث أعله العقيلي في «الضعفاء بمحمد بن الحسن وقال لا يتابع عليه».

وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٨٢) رقم (١٧٣٨): سألت أبي عن حديث رواه محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن عمرو بن قيس عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال الله عز وجل: من شغله القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ثواب السائلين قال أبي هذا حديث منكر ومحمد بن الحسن ليس بالقوي أ.هـ فأعل العقيلي وأبو حاتم هذا الحديث بمحمد بن الحسن قلت: قال البيهقي: تابعه الحكم بن بشير ومحمد بن مروان عن عمرو بن قيس لتنحصر علة الحديث في ضعف وتدليس عطية العوفي.

وللحديث شاهد من حديث عمر بن الخطاب أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ٩٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٤١٣) رقم (٥٧٢) كلاهما من طريق صفوان بن أبي الصهباء عن بكير بن عتيق عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده مرفوعاً به ومن طريق صفوان أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٦٦) وقال: قال ابن حبان: هذا موضوع ما رواه إلاّ صفوان بهذا الإسناد فأما صفوان فيروي عن الإثبات. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق عن سفيان عن منصور عن مالك بن الحرث قال: «يقول الله: إذا اشتغل عبدي بثنائه عن مسألتي أعطيته =

رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة» (١٣٥٨) وقرأ هذه الآية. ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما، ويريد بعبادتي: دعائي؛ لأن الدعاء باب من العبادة ومن أفضل أبوابها، يصدقه قول ابن عباس رضي الله عنهما: أفضل العبادة الدعاء (١٣٥٩). وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلاّ نبيًّا مرسلاً: كان يقول لكل نبيّ أنت شاهدي على خلقي، وقال لهذه الأمة: ﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ وكان يقول: ما عليك من حرج، وقال لنا: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] وكان يقول: ادعني أستجب لك؛ وقال لنا: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وعن ابن عباس: وحدوني أغفر لكم، وهذا تفسير للدعاء بالعبادة، ثم للعبادة بالتوحيد. ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿مُبْصِرًا﴾ من الإسناد المجازي؛ لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار. فإن قلت: لم قرن الليل بالمفعول له، والنهار بالحال؟ وهلا كانا حالين أو مفعولاً لهما فيراعي حق المقابلة؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى؛ لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر؛ لأنه لو قيل: لتبصروا فيه، فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: ساكناً ـ والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج، وساكن لا ريح فيه ـ لم تتميز الحقيقة من المجاز. فإن قلت: فهلا قيل: لمفضل، أو لمتفضل؟ قلت: لأن الغرض تنكير الفضل، وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل، وذلك إنما يستوي بالإضافة. فإن قلت: فلو قيل: ولكن أكثرهم، فلا يتكرر ذكر الناس؟ قلت: في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦، الزخرف: ١٥] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ

= أفضل ما أعطي السائلين» وهذا مرسل، وفي الترمذي عن أبي سعيد «من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». انتهى.

١٣٥٨ ـ تقدم في مريم، وقال الحافظ: أخرجه أصحاب السنن، وتقدم في مريم. انتهى.

١٣٥٩ ـ أخرجه الحاكم (١/ ٤٩١)، كتاب: الدعاء، باب: فضل العبادة هو الدعاء، من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: أفضل العبادة الدعاء، وقرأ: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ الآية. انتهى. وقال الحافظ بن حجر: أخرجه الحاكم في الدعاء من وجهين عنه. انتهى.

﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة، أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وإنشائه لا يمتنع عليه شيء، والوحدانية: لا ثاني له. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان. ثم ذكر أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة طلب الحق وخشية العاقبة أفك كما أفكوا. وقرئ: «خالق كل شيء» نصباً على الاختصاص. وتؤفكون: بالتاء والياء.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

هذه أيضاً دلالة أخرى على تميزه بأفعال خاصة، وهي أنه جعل الأرض مستقرًا ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢] أي: قبة. ومنه: أبنية العرب ٢/ ١٥٥أ لمضاربهم؛ لأن السماء في منظر العين كقبة مضروبة على وجه الأرض، ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣] وقرئ: بكسر الصاد، والمعنى واحد. قيل: لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان. وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم، كقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعة من الشرك والرياء، قائلين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من قال: لا إله إلاّ الله، فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين (١٣٦٠).

﴿۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

فإن قلت: أما نهى رسول الله ﷺ عن عبادة الأوثان بأدلة العقل حتى جاءته البينات من ربه؟ قلت: بلى، ولكن البينات لما كانت مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومضمنة ذكرها

١٣٦٠ ـ أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٨)، كتاب: التفسير، باب: «من قال لا إله إلاّ الله فليقل على أثرها الحمد لله»، والطبري في تفسيره (١١/ ٧٥)، رقم (٣٠٣٩١)، كلاهما من طريق مجاهد عن ابن عباس، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٢١) للبيهقي في الأسماء والصفات وللثعلبي في تفسيره وكذا لابن مردويه جميعهم من نفس الطريق السابق.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الحافظ: أخرجه الطبري، والحاكم أيضاً، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن مردويه من رواية الأعمش عن مجاهد عنه. انتهى.

نحو قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥ ـ ٩٦] وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل ـ كان ذكر البينات ذكراً لأدلة العقل والسمع جميعاً، وإنما ذكر ما يدلّ على الأمرين جميعاً؛ لأن ذكر تناصر الأدلة أدلة العقل وأدلة السمع أقوى في إبطال مذهبهم وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية[1].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره: ثم يبقيكم لتبلغوا. وكذلك لتكونوا. وأما ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ فمعناه: ونفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى، وهو وقت الموت. وقيل: يوم القيامة. وقرئ: «شيوخاً» بكسر الشين. وشيخاً، على التوحيد، كقوله: ﴿طفلاً﴾ [الحج: ٥] والمعنى: كل واحد منكم. أو اقتصر على الواحد؛ لأنّ الغرض بيان الجنس. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطاً ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من العبر والحجج.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا﴾ يكوّنه من غير كلفة ولا معاناة. جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة، وسائر ما ذكر من أفعاله الدالة على أنّ مقدوراً لا يمتنع عليه، كأنه قال: فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمراً كان أهون شيء وأسرعه.

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: النبي عليه الصلاة والسلام قد اتضحت له أدلة العقل على التوحيد قبل مجيء الوحي، فعلام تحمل الآية؟ وأجاب بأن الأمر كذلك ولكن البينات مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومتضمنة ذكرها، نحو قوله: (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل والسمع جميعاً، وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعاً؛ لأن ذكر الأمرين أقوى في إبطال مذهبهم، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية، قال أحمد: اللائق بقواعد السنة أن يقال: أما معرفة الله تعالى ومعرفة وحدانيته واستحالة كون الأصنام آلهة، فمستفاد من أدلة العقول، وقد ترد الأدلة العقلية في مضامين السمعيات. وأما وجوب عبادة الله تعالى وتحريم عبادة الأصنام، فحكم شرعي لا يستفاد إلاّ من السمع؛ فعلى هذا يترك الجواب عن هذا السؤال. وقوله تعالى: (إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) إنما أريد به ـ والله أعلم ـ: تحريم عبادة غير الله، فهذا لا يستفاد إلاّ من نهي الله تعالى عن ذلك، لا من العقل، لكن قاعدة الزمخشري تقتضي أن تحريم عبادة غير الله تعالى تتلقى من العقل قبل ورود الشرع؛ إذ العقل عنده حاكم بمقتضى التحسين والتقبيح، ولهذا أورد الإشكال عليه، واحتاج إلى الجواب عنه، ثم قوله في الجواب: إن أدلة الشرع مقوية لأدلة العقل ضعيف، مع اعتقاده أن العقل يدل على الحكم قطعاً، وما دل قطعاً، كيف يحتمل الزيادة والتأكيد، والقطعيات لا تفاوت في ثبوتها؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ ۚ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بالقرآن ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من الكتب. فإن قلت: وهل قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ إلى مثل قولك: سوف أصوم أمس؟ قلت: المعنى على إذا: إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها: عبر عنها بلفظ ما كان ووجد، والمعنى على الاستقبال. وعن ابن عباس: والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء، على عطف الجملة الفعلية على الإسمية. وعنه: والسلاسل يسحبون بجر السلاسل. ووجهه أنه لو قيل: إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ لكان صحيحاً مستقيماً، فلما كانتا عبارتين معتقبتين: حمل قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ على العبارة الأخرى. ونظيره [من الطويل]:

مَشَائِيمُ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً ... وَلاَ نَاعِبٍ إِلاَّ بِبَيْنٍ غُرَابُهَا[1]

كأنه قيل: بمصلحين. وقرئ: «وبالسلاسل يسحبون» ﴿فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ من سجر التنور إذا ملأه بالوقود. ومنه: السجير[2]، كأنه سجر بالحب، أي: ملئ ومعناه: أنهم في النار فهي محيطة بهم، وهم مسجورون بالنار مملوؤة بها أجوافهم. ومنه قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ [الهمزة: ٦، ٧] اللهم أجرنا من نارك فإنا عائذون بجوارك. ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ غابوا عن عيوننا، فلا نراهم ولا ننتفع بهم. فإن قلت: أما ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]: أنهم مقرونون بآلهتهم، فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم؟ قلت: يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا وقيل لهم: أين ما كنتم تشركون من دون الله فيغيثوكم ويشفعوا لكم، وأن يكونوا معهم في سائر الأوقات[3]، وأن يكونوا معهم في جميع أوقاتهم؛ إلا

---

(١) تقدم.

(٢) قوله: «ومنه السجير» في الصحاح: «سجير الرجل»: صفيه وخليله، والجمع السجراء. (ع).

(٣) قوله: «في سائر الأوقات» أي باقي الأوقات بعد وقت التوبيخ. (ع).

أنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم ضالون عنهم. ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً كما تقول: حسبت أنّ فلاناً شيء فإذا هو ليس بشيء إذا خبرته فلم تر عنده خيراً. ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم.، حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا. ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشرك وعبادة الأوثان. ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة المقسومة لكم. قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ ٢/ ١٥٥أ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٤٤]. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مقدّرين الخلود ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق المستخفين به مثواكم أو جهنم. فإن قلت: أليس قياس النظم أن يقال: فبئس مدخل المتكبرين، كما تقول: زر بيت الله فنعم المزار، وصل في المسجد الحرام فنعم المصلى؟ قلت: الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثواء.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله: فإن نرك. و (ما) مزيدة لتأكيد معنى الشرط؛ ولذلك ألحقت النون بالفعل[1] ألا تراك لا تقول: إن تكرمني أكرمك، ولكن: إما تكرمني أكرمك. فإن قلت: لا يخلو إما أن تعطف ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ على ﴿نرينك﴾ وتشركهما في جزاء واحد وهو قوله تعالى: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فقولك: فإمّا نرينك بعض الذي نعدهم فإلينا يرجعون: غير صحيح، وإن جعلت ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ مختصًا بالمعطوف الذي هو نتوفينك، بقي المعطوف عليه بغير جزاء. قلت: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ متعلق بنتوفينك، وجزاء ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوف، تقديره: فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك. أو أن نتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم[2] منهم أشدّ الانتقام ونحوه قوله

---

(١) قال محمود: «المصحح للحاق النون المؤكدة دخول ما المؤكدة للشرط، ولولا (ما) لم يجز دخولها، قال أحمد: وإنما كان كذلك؛ لأن النون المؤكدة حقها أن تدخل في غير الواجب، والشرط من قبيل الواجب، إلاّ أنه إذا أكد قوي إبهامه فقربته قوة الإبهام من غير الواجب، فيساغ دخول النون فيه.

(٢) قال محمود: «إما أن يشرك مع الأول في الشرط ويكون قوله: (فإلينا يرجعون) جزاء مشركاً بينهما فلا يستقيم المعنى، على: فإما نرينك بعض الذي نعدهم.. فإلينا يرجعون، وإن جعل الجزاء مختصًا بالثاني بقي الأول بغير جزاء، وأجاب بأنه مختص بالثاني، وجزاء الأول محذوف، تقديره: فإما نرينك بعض الذي نعدهم، وهو ما حل بهم يوم بدر، فذاك. أو نتوفينك، فإلينا يرجعون، فننتقم منهم، قال أحمد: وإنما حذف جواب الأول دون الثاني؛ لأن الأول إن وقع فذاك غاية الأمل =

تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزخرف: ٤١ ـ ٤٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۚ﴾ قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبيّ: أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس. وعن عليّ رضي الله عنه: أنّ الله تعالى بعث نبيًّا أسود (١٣٦١)، فهو ممن لم يقصص عليه. وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ عناداً، يعني: إنّا قد أرسلنا كثيراً من الرسل وما كان لواحد منهم ﴿أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فمن لي بأن آتي بآية مما تقترحونه إلاّ أن يشاء الله ويأذن في الإتيان بها. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وعيد وردّ عقيب اقتراح الآيات. وأمر الله: القيامة ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد أتتهم الآيات فأنكروها وسموها سحراً.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۖ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

١٣٦١ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٨٠)، رقم (٣٠٤٠٩)، من طريق عبد الله بن يحيى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٢٢) لابن مردويه من حديث آدم بن أبي إياس، وللثعلبي في تفسيره من طريق أبي الطفيل عن علي، في تفسير سورة البروج.
وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه من رواية جابر الجعفي عن عبد الله بن يحيى عن علي رضي الله عنه في قوله: (ومنهم من لم نقصص عليك) قال: أرسل الله عبداً حبشياً، فهو الذي لم نقصص عليك، وروى الثعلبي من وجه آخر عن جابر عن أبي الطفيل عن علي «كان أصحاب الأخدود نبيهم حبشي. بعث نبي من الحبشة إلى قومه. ثم قرأ: (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ـ الآية). انتهى.

= في إنكائهم، فالثابت على تقدير وقوعه معلوم، وهو حصول المراد على التمام. وأما إن لم يقع ووقع الثاني وهو توفيه قبل حلول المجازاة بهم، فهذا هو الذي يحتاج إلى ذكره للتسلية وتطمين النفس، على أنه وإن تأخر جزاؤهم عن الدنيا فهو حتم في الآخرة ولا بد منه. قال: ومثله قوله تعالى: (فإما نذهبنّ بك فإنا منهم منتقمون، أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون): كأنه يستشهد على أن جزاء الأول محذوف بذكر هذه الآية.

الأنعام: الإبل خاصة. فإن قلت: لم قال: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ ولتبلغوا عليها، ولم يقل: لتأكلوا منها، ولتصلوا إلى منافع؟ أو هلا قال: منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون[1] عليها حاجة في صدوركم؟ قلت: في الركوب: الركوب في الحج والغزو، وفي بلوغ الحاجة: الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم، وهذه أغراض دينية إمّا واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق[2] به إرادة الحكيم. وأما الأكل وإصابة المنافع: فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به إرادته، ومعنى قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وعلى الأنعام وحدها لا تحملون، ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر. فإن قلت: هلا قيل: وفي الفلك، كما قال: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؟ [هود: ٤٠] قلت: معنى الإيعاء[3] ومعنى الاستعلاء: كلاهما مستقيم؛ لأنّ الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له يستعليها، فلما صحّ المعنيان صحت العبارتان. وأيضاً فليطابق قوله: (وعليها) ويزاوجه ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ﴾ جاءت على اللغة المستفيضة. وقولك: فأية آيات الله قليل؛ لأنّ التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب. وهي في (أي) أغرب لإبهامه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: هلا قيل: لتركبوا منها ولتأكلوا منها ولتبلغوا، ومنها تركبون ومنها تأكلون، وعليها تبلغون؟ وأجاب بأن في الركوب الركوب في الغزو والحج، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو علم، وهذه أغراض دينية: إما واجبة أو مندوبة مما يتعلق به إرادة الحكيم، وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به الإرادة» قال أحمد: جواب متداع للسقوط مؤسس على قاعدة واهية، وهي أن الأمر راجع إلى الإرادة، فالواجب والمندوب مرادان؛ لأنهما مندرجان في الأمر، والمباح غير مراد؛ لأنه غير مأمور به، وهذا من هنيات المعتزلة في إنكار كلام النفس، فلا نطيل فيه النفس. وقاعدة أهل الحق: أنه لا ربط بين الأمر والإرادة، فقد يأمر بخلاف ما يريد، ويريد خلاف ما يأمر به، فالجواب الصحيح إذاً أن المقصود المهم من الأنعام والمنفعة المشهورة فيها إنما هي الركوب وبلوغ الحوائج عليها بواسطة الأسفار والانتقال في ابتغاء الأوطار؛ فلذلك ذكرهما هنا مقرونين باللام الدالة على التعليل والغرض. وأما الأكل وبقية المنافع كالأصواف والأوبار والألبان وما يجري مجراها فهي وإن كانت حاصلة منها فغير خاصة بها خصوص الركوب والحمل وتوابع ذلك، بل الأكل بالغنم خصوصاً الضأن أشهر؛ فلذلك اختيرت الضحايا منها على الغنم، فلذلك جردت هذه المنافع بالإخبار عن وجودها فيها غير مقرونة بما يدل على أنها المقصود.

(٢) قوله: «المباح الذي لا يتعلق به» مبني على مذهب المعتزلة: أن الإرادة بمعنى الأمر فلا تتعلق إلاّ بالمطلوب. وعند أهل السنة: هي صفة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، فتتعلق بجميع الممكنات، كما تقرر في علم التوحيد. (ع).

(٣) قوله: «معنى الإيعاء»، في الصحاح: أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته في الوعاء. (ع).

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَءَاثَارًا﴾ قصورهم ومصانعهم. وقيل: مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ ما نافية أو مضمنة معنى الاستفهام، محلها النصب، والثانية: موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع، يعني أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم. ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ فيه وجوه: منها أنه أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]: وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون: لا نبعث ولا نعذب، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦] وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به البينات وعلم الأنبياء، كما قال عزّ وجلّ: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [الروم: ٣٢] ومنها: أن يريد علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان، وكانوا إذ سمعوا بوحي الله: دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم. وعن سقراط: أنه سمع بموسى صلوات الله عليه وسلامه، وقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا. ومنها: أن يوضع قوله: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣] ولا علم عندهم البتة، موضع قوله: لم يفرحوا بما جاءهم من العلم، مبالغة في ٢/ ١٥٦أ نفي فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والمسرة، مع تهكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلماء[1]. ومنها أن يراد: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به، كأنه قال: استهزءوا بالبينات وبما جاءوا به من علم الوحي فرحين مرحين. ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ومنها: أن يجعل الفرح للرسل. ومعناه: أن الرسل لما رأوا جهلهم المتمادي واستهزاءهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم: فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه. وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم. ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم: علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧]، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات ـ وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف[2] عن الملاذ والشهوات ـ لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزءوا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يُعبِّرُه بالجملة الظاهرة كونها مثبتة عن الجملة المنفية إلا في قليل من الكلام نحو: شرٌّ أهرَّ ذا ناب على خلاف فيه.
ولما آل أمره إلى الإثبات المحصور جاز، وأما في الآية فينبغي أن لا يحمل على القليل؛ لأن في ذلك تخليطاً لمعاني الجمل المتباينة. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «والظلف» في الصحاح: ظلفت نفسي عن كذا ـ بالكسر ـ تظلف ظلفاً، أي: كفت. (ع).

للفوائد من علمهم، ففرحوا به.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

البأس: شدّة العذاب. ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥]. فإن قلت: أي فرق بين قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ وبينه لو قيل: فلم ينفعهم إيمانهم؟[1] قلت: هو من كان في نحو قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] والمعنى: فلم يصحّ ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم. فإن قلت: كيف ترادفت هذه الفاءات؟ قلت: أما قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ [غافر: ٨٢] فهو نتيجة قوله: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ [غافر: ٨٢] وأما قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٨٣] فجار مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ [غافر: ٨٢] كقولك: رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء. وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ تابع لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ [غافر: ٨٣] كأنه قال: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا، وكذلك: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله. ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ بمنزلة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٩٥] وما أشبهه من المصادر المؤكدة. و﴿هُنَالِكَ﴾ مكان مستعار للزمان، أي: وخسروا وقت رؤية البأس، وكذلك قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] بعد قوله: ﴿جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ [غافر: ٧٨] أي: وخسروا وقت مجيء أمر الله، أو وقت القضاء بالحق.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلاّ صلّى عليه واستغفر له» (١٣٦٢).

١٣٦٢ ـ تقدم برقم (٣٤٦).
وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي ابن كعب رضي الله عنه. انتهى.

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: أي فرق بين قوله: فلم يك ينفعهم إيمانهم. وبينه لو قيل: فلم ينفعهم؟ وأجاب بأن معنى (كان) هنا معناها في قوله: (ما كان لله أن يتخذ من ولد) بمعنى: فلم يستقم ولم يصح أن ينفعهم إيمانهم، قال أحمد: كان الذي ثبت التصرف فيها بإجراء نونها مجرى حروف العلة حتى حذفت للجازم هي (كان) الكثير استعمالها، المكرر دورانها في الكلام. وأما (كان) هذه فليست كثيرة التصرف حتى يتسع فيها بالحذف، بل هي مثل: صان، وحان، في القلة، فالأولى بقاؤها على بابها المعروف، وفائدة دخولها في هذه الآية وأمثالها: المبالغة في نفي الفعل الداخلة عليه بتعديد جهتي نفيه عموماً باعتبار الكون، وخصوصاً باعتباره في هذه الآية مثلاً، فكأنه نفي مرتين، والله أعلم.